منزلة تعليم الأمة بين مقاصد القرآن عند الطاهر ابن عاشور (1393 هـ) معالم وأبعاد

أحمد سميح

باحث في تفسير القرآن والمقاصد والفكر الإسلامي

بمختبر الدراسات التطبيقية في الشريعة والقانون،

بكلية الشريعة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله

بفاس- المغرب

ahmed.samih@usmba.ac.ma

©نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution international (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: سميح، أحمد، منزلة تعليم الأمة بين مقاصد القرآن عند الطاهر ابن عاشور (1393 هـ): معالم وأبعاد، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد خاص للمؤتمر القرآني الدولي الثالث المجلد (3)، سبتمبر 2025: 328-369.

DOI: https://doi.org/10.61821/con3v3.219

الملخص:

نظرا لأهمية العلم في حياة الأمم وأثره في رقيها وازدهارها، ومع تطلع أمة الإسلام إلى ذلك قيامًا بشهودها، فإنه يبقى مدخلًا جوهريًّا ومنطلقا أساسيًّا وللمهتم بتلك البُغية العظيمة والمتهمم بذلك المقصد السامق أن يتساءل: أي مكتنزات القرآن الكريم حققت للأمة سؤددها العلمي في فترات عزها وما السبيل إلى الكشف عنها واستثمارها لمداواة مشكلات الأمة الحاصلة في هذا الميدان؟

ولأن التفسير من أقرب العلوم اشتغالًا على القرآن الكريم، فإن الباحث ارتأى أن ينظر في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور؛ فيرى إلى أي حد التفت هذا المفسر الفذ إلى الجانب العلمي التعليمي في تفسيره، وما حظ العلوم ضمن مقاصد القرآن، من خلال بحث جاء عنوانه " منزلة تعليم الأمة بين مقاصد القرآن عند ابن عاشور: معالم وأبعاد "، وكان من مخرجاته: يعتبر تعليم الأمة مقصدًا قرآنيًّا كليًّا. مما يدل على منزلته العالية، يزاوج القرآن في اهتمامه بين علوم الدين وعلوم الدنيا، تولدت عن البحث أسئلة تحتاج إلى مباحثات ومفاكرات وإجابات.

الكلمات المفتاحية: تعليم الأمة – مقاصد القرآن – الطاهر ابن عاشور.

The Status of Teaching the Nation Among the Objectives of the Quran According to Ibn Ashur: Features and Dimensions

Ahmed SAMIH

Researcher in Quranic interpretation, objectives, and Islamic thought at the Laboratory of Applied Studies in Sharia and Law, Faculty of Sharia, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fez, Morocco

©This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license.

Citation: SAMIH, Ahmed, The Status of Teaching the Nation Among the Objectives of the Quran According to Ibn Ashur: Features and Dimensions, Journal of the University of Holy Quran and Islamic Sciences, Special Issue of the third International Qur'anic Conference, Volume (3), September 2025:328-369.

DOI: https://doi.org/10.61821/con3v3.219.

Abstract:

Given the importance of science in the lives of nations and its impact on their advancement, and with the Islamic nation's aspiration to this as a witness to its existence, it remains an essential entry point and a fundamental starting point for those interested in this great goal and dedicated to this lofty purpose to ask: Which of the Holy Qur'an's treasures have enabled the nation to achieve scientific supremacy during its periods of glory? What is the path to uncovering and utilizing them to address the nation's problems and remedy the pitfalls encountered in this field؟

Since interpretation is one of the sciences that deals most closely with the Holy Quran, the researcher decided to examine the interpretation of Al-Tahrir wa Al-Tanwir by Ibn Ashur, to see to what extent this unique interpreter paid attention to the scientific and educational aspect in his interpretation, and what share the sciences had within the objectives of the Quran, through a research entitled: The Status of Teaching the Nation Among the Objectives of the Quran According to Ibn Ashur: Features and Dimensions.

Among its outcomes were :The education of the nation is considered a comprehensive Quranic objective, indicating its lofty status, the Quran combines religious and worldly interests in its focus, the research generated questions that require discussion, reflection, and answers.

Keywords: Education of the nation - Objectives of the Qur'an - Taher Ibn Ashur.

المقدمة:

الحمد لله العليم الحكيم، القائل في محكم تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، القرآن الماشي، سيدنا محمد الرحمة المهداة، صاحب السنة، النور الهادي، وعلى آله وصحابته الأخيار، نجوم العلم الأحبار، والتابعين

الأبرار، وُراث الحكمة والأسرار.

وإنه لمما يأتي على قمة ما ينبغي الاضطلاع به من رواد الأمة الإسلامية مفكرين ومصلحين وعلماء – وهم يرتهنون فكرهم وتفكيرهم بواقع الأمة، ويضعون أعينهم على أوضاعها، ويرقبون سيرها ومسيرتها، لِتستمر في طريق الرقي حال رقيها، ويكرون على ما يقع من مشاكلها أو يطرأ من أزماتها لحله ومنع استفحاله فتنهض من كبوتها– أن ينطلقوا في كل ذلك من القرآن الكريم في كل وقت وحين؛ باعتبار منزلته عند الأمة ومرجعيته لها. ومن ذلك واقعها التعليمي الذي يطرح اليوم نفسه على الدارسين والمهتمين – أفرادا وهيئات – ليغوصوا بفكرهم فيه وفيما وصل إليه لدى الأمة من انحدار وتقهقر تتعدد تجلياته وتتباين مشكلاته التي تدعوهم وتفرض عليهم – من موقع مسؤوليتهم وواجباتهم – الانتهاض لأجل التصدي للأسئلة الواعية الدقيقة بإزاء ذلك الواقع، ومن ثم العمل الدؤوب والسعي الحثيث لتشخيص الأوضاع وتحليلها والقيام بالمحاولات تلو الأخرى بحثًا وإسهامًا في إيجاد الحلول الناجعة التي تكشف وتزيل ما سببَه تردي التعليم في الأمة من غمة، عسى أن ترجع أمة القرآن إلى المكانة الريادية اللائقة بها فتتبوأ موقع الخيرية والشهود الحضاري المدعوة إليه اصطفاءً في قرآنها الذي ارتضى لها ويرتضي أن تكون ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

ولا غرو أن الانطلاق من منزلة العلم والتعليم والتعلم في القرآن الكريم يُعد مدخلًا مُهما لمباحثة الواقع المزري للأمة في هذا الميدان الحيوي الخَطِر، ليُنظر من خلال ذلك إلى ما يتبوأه العلم في كتاب الله تعالى وإلى أي حد كان[1] تعليم الأمة مقصدا قرآنيا؟، وكيف احتفى القرآن بذلك واهتم به؟، وكيف نظر في المقابل إلى الجهل والتجهيل وأسبابهما؟ وغيرها من الأسئلة التي يُسعف المسكُ بطرف من الإجابات عنها في قراءة واقع الأمة التعليمي على نحو من الرشد العالي؛ يتلمس فيه الباحث القارئ تحري بعضا من ملامح الحلول المناسبة المجدية النافعة في إضافة لَبِنَاتٍ ضَافيةٍ لصرح البُناة الهداة السعاة لإعادة الأمة إلى مجدها وإمامتها الحضارية؛ تأهيلا لنفسها وقيادةً وقدوةً لغيرها. فكان ذاك مما يُسوغ أن يختار الباحث المُعد

(1). فعل "كان" هنا على صيغة الماضي المفيد للاستمرار.

لهذه المداخلة وَسْـــمَ **"منزلة تعليم الأمة بين مقاصـــد القرآن عند ابن عاشـــور"** للمفاكرة والمطارحة في بعض **أبعاده ومعالمه**، مستحضرًا المرامي السامقة المبتغاة من المؤتمر* المحتضن بـــ "جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسـلامية" الفيحاء بيمن الحكمة؛ تحت شـعار "القرآن الكريم ومشـكلات الأمة المعاصـرة"، مُسـتندا ومسـتظهرا فيه إلى عَلَمٍ(1) من أعلام الأمة المشـهود لهم بالإمامة وسـعة العارضـة في العلم عامة، وفي المعرفة القرآنية وتفسـير القرآن ومقاصـده خاصـة، معتمدا بالأســاس على مصــنفه التفســيري المســمى "التحرير والتنوير"(2). ســالكًا في ذلك مسـلك الوصـف والتحليل مع ما يمكن أن يتيسـر من اسـتنباط ونقد وتعليل، إذ إبداء الرأي مرغوب والتقصيد مطلوب وسؤال الله التوفيق والسداد معتمد محبوب. وذلك من خلال الخطة الآتية:

المبحث الأول: منزلة العلم في القرآن ومقصدية التعليم بين مقاصد القرآن عند ابن عاشور.

- المطلب الأول: رفعة العلم ومذمة الجهل في القرآن عند ابن عاشور.
- المطلب الثاني: مقصدية التعليم ومنزلته بين مقاصد القرآن عند ابن عاشور.

---

* تجدر الإشـارة أن هذا البحث كان ضـمن مادة البحوث المقررة في المؤتمر القرآني الدولي الثالث، المقام في اليمن بإشـراف جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسـلامية، تحت شـعار: "القرآن الكريم ومشـكلات الأمة المعاصـرة"، خلال 25 شوال 1446هـ / 23 أبريل 2025م. وهو مستخرج من أحد المباحث المضـمنة في رســالة دكتوراه للباحث بعنوان: "التفســير المتوســع عند الطاهر بن عاشــور: دراســة نظرية تطبيقية مقاصدية".

(1). ارتأى الباحث عدم التعريف بالطاهر ابن عاشور لاشتهاره.

(2). قال ابن عاشـور عن تفسـيره في مقدمة تفسـيره: "سـاوى هذا التفسـير على اختصـاره مطولات القماطير، ففيه أحسـن ما في التفاسـير، وفيه أحسـن مما في التفاسـير. وسميته: «تحرير المعنى السـديد وتنوير العقل الجديد من تفسـير الكتاب المجيد»" ابن عاشـور، الطاهر، التحرير والتنوير (1/ 8)،. وقال أيضـا "واختصرت هذا الاسم باسم «التحرير والتنوير من التفسير» " نفسه (1/ 9). وسيتم الاكتفاء في البحث أثناء التوثيق باستعمال اسم "التحرير والتنوير" اختصـارا، وأحيانا يتم الاكتفاء برقم الجزء x ورقم الصـفحة y كالآتي (y/x)،. ولو لم يوضع بجواره التحرير والتنوير فهو يدل عليه.

المبحث الثاني: أي علوم عني القرآن بها وبتعليمها حسب منظور ابن عاشور؟

- المطلب الأول: علوم الدين هدايةً للإنسان وحفاظا على فطرته.
- المطلب الثاني: العلوم الدنيوية خدمةً للمقصد الاستخلافي العمراني.

الخلاصـــــــــــة.

المبحث الأول

منزلة العلم في القرآن ومقصدية التعليم بين مقاصد القرآن عند ابن عاشور

المطلب الأول: رفعة العلم ومذمة الجهل في القرآن عند ابن عاشور.

من تعاريف ابن عاشور للعلم نجده بين أن العلم يُراد به "حُكم الذهن المطابق للواقع عن ضرورة أو برهان"[1]، ويَعتبر العلم حياةً والجهل موتًا، وروح العلم الوحي. وبين أن اسم الروح استُيعرت للوحي لأن به "هَدْي العقول إلى الحق"[2]. وطالما أكد أن القرآن "شَبه الوحيَ بالروح كما يُشَبه العلمَ الحق بالحياة، وكما يُشَبه الجهل بالموت"[3] ؛ في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: 122]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: 49]. مضيفا في حديثه عن وجه تشبيه الوحي بالروح أن "الوحي إذا وعته العقول حلت بها الحياة المعنوية وهو العلم، كما أن الروح إذا حل في الجسم حلت به الحياة الحسية"[4].

وفي معرض توطئته – دأبُه مع أي سورة – لتفسير سورة الزمر تكلم ابن عاشور بعد أن نبه أنها تبتدئ بالتنويه بشأن القرآن تنويها تكرر عدة مرات وذكر أغراضًا كثيرة لها؛ منها تمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الدنيا والآخرة، أخبر رحمه الله بأن كل ذلك مما جاء فيها تخلله – إضافةً إلى "وعيد ووعد، وأمثال، وترهيب وترغيب، ووعظ"[5] – إيماءٌ بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] إلى "أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة، وذلك تنويهٌ برفعةِ العلم ومذمةِ الجهل"[6].

(1). التحرير والتنوير (7/ 408).
(2). التحرير والتنوير (14/ 98).
(3). التحرير والتنوير (14/ 98).
(4). التحرير والتنوير (14/ 99).
(5). التحرير والتنوير (23/ 313).
(6). التحرير والتنوير (23/ 313).

وفي تناول ابن عاشـــور للفظة الحكمة، نجده يعتبرها أجل ثمار العلم. إذ الحكمة عنده "هي المعرفة الـمُحكمة، أي الصائبة المجردة عن الخطأ"[1]، وتطلق أيضا على "العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحُكم"[2]. ولا تطلق "إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم"[3]. ولذلك عرفوا الحكمة بحسب ابن عاشور أنها: "معرفة حقائق الأشـياء على ما هي عليه بحسـب الطاقة البشـرية بحيث لا تلتبس على صـاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير"[4]. فهي إذن إجراء فعل على وفق علم متقن، لذلك "قيل: نزلت الحكمة على ألسـنة العرب، وعقول اليونان، وأيدي الصينيين"[5]. وتُعتبر الحكمة تبعا لتقرير ابن عاشور "أوسعَ بابٍ انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شـيء لم يطرق أسماع العرب من قبل"[6]. وإنما مزية للقرآن الذي "فتح الأعين إلى فضـائل العلوم بأن شـبه العلم بالنور وبالحياة كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس:70]، وقولـه: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 250]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43]"[7].

(1). التحرير والتنوير (14/ 327).
(2). التحرير والتنوير (14/ 327).
(3). التحرير والتنوير (14/ 327).
(4). التحرير والتنوير (14/ 327).
(5). التحرير والتنوير (3/ 61).
(6). التحرير والتنوير (1/ 41).
(7). التحرير والتنوير (1/ 128).

وإذا كانت الحكمة ثمرة للعلم، فالجهل[1] يناقضها. لذلك تكلم ابن عاشور عن الجهالة في مقابل الحكمة؛ فالحكمة هي منبع سداد الرأي والعاصم من الوقوع في الغلط والضلال بحسب التشبع بها وبما تستلزمه من المعارف والحقائق، والجهالة هي مصدر الشر والبؤس والشقاء وما يحل بالناس من المصائب، فقال رحمه الله: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا...، والخير الكثير مُنجر إليه من سداد الرأي والهدى الإلهي، ومن تفاريع قواعد الحكمة التي تعصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار التوغل في فهمها واستحضار مُهمها. لأننا إذا تتبعنا ما يحل بالناس من المصائب نجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأَفَن الرأي. وبعكس ذلك نجد ما يجتنيه الناس من المنافع والملائمات[2] مُنجرا من المعارف والعلم بالحقائق، ولو أننا علمنا الحقائق كلها لاجتنبنا كل ما نراه مُوقعا في البؤس والشقاء"[3]. ومن المشتقات المتصلة بالجهل أيضا لفظ الجاهلية[4] المحسوب عند ابن عاشور "من مبتكرات القرآن"[5]، والظاهرُ – بحسبه أيضا – "أنه نسبة إلى الجاهل أي الذي لا يعلم الدين والتوحيد"[6]، ولذلك جعله في مقابل العلم حيث ذهب أنه وَصْفٌ "وُصِفَ به أهل الشرك تنفيرا من الجهل، وترغيبا في العلم"[7]. وقد لفت ابن عاشور الانتباه إلى أن لفظ الجاهلية ما

(1). عرف ابن عاشور الجهل بأنه: "انتفاء العلم أو تصور الشيء على خلاف حقيقته" (9/ 82)، أي أن الجهل ضد العلم. وعرفه في سياق آخر بأنه "ضد الحلم والرشد، وهو – حسب قوله – أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم"(9/ 228).، كما أن "إطلاق الجهل على ضد العلم إطلاق عربي قديم" (24/ 57).

(2). لعله يقصد المصالح والفوائد.

(3). التحرير والتنوير (3/ 64).

(4). قال: "والجاهلية صفة جرت على موصوف محذوف يقدر بالفئة أو الجماعة، وربما أريد به حالة الجاهلية في قولهم أهل الجاهلية" (4/ ص 136).

(5). قال ابن عاشور: "أحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن" (4/ 136).

(6). التحرير والتنوير (4/ 136).

(7). التحرير والتنوير (4/ 136).

ذُكر في القرآن إلا "في مقامات الذم"[1]، وأعقب ذلك بأمثلة من قبيل: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50] و﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33] و﴿ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: 26]، و﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: 154]. وما فتئ القرآن يصف هؤلاء بالجاهلين وينابيهم بذلك الوصف؛ وفي هذا النداء تبعا لقول ابن عاشور "تقريعٌ لهم بعد أن وُصفوا بالخسران ليجمع لهم بين نقص الآخرة ونقص الدنيا"[2]. وعُبر عن الجهل في القرآن أيضا بالخرص – و"الخرص ما كان غيرَ علم"[3]– كقوله تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: 19]، قال ابن عاشور: "جملة إن هم إلا يخرصون بيان لجملة ما لهم بذلك من علم"[4]، وأضاف: "ما لهم بذلك أي بقولهم ذلك من علم بل هو من جهالة السفسطة واللبس"[5]. ولبشاعة الخرص باعتباره صنوا للجهل نجد سورة الذاريات تكلمت عن أهله بتعبير "تُشعر بأنه إنشاءُ شتم لهم شتم خزي وغضب"[6]، حيث قال الله تعالى فيها: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ [الذاريات: 10]. قال ابن عاشور: "دعاءٌ بالهلاك... لأن المقصود بقتلهم أن الله يهلكهم، ولذلك يَكثر أن يُقال: قاتله الله"[7].

وهكذا كما أن الجهل يوقع في الجهالة؛ ومن آثاره الجهالة؛ التي "تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي ما قابل الحلم"[8]، وتطلق "على

(1). التحرير والتنوير (4/ 136).
(2). التحرير والتنوير (24/ 57).
(3). التحرير والتنوير (8–أ/ 28).
(4). التحرير والتنوير (25/ 186).
(5). التحرير والتنوير (25/ 186).
(6). التحرير والتنوير (30/ 240).
(7). التحرير والتنوير (26/ 343).
(8). التحرير والتنوير (4/ 278).

الظلم"[1]، ومنه ظلم النفس الذي قصد يوسف النبي عليه السلام التعوذَ منه – بحسب ابن عاشور– بقوله عليه السلام كما جاء في الآية: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: 33]، ولو أن السيئة بصفة عامة تأتي "من جهل أو تفريط أو سوء نظر في العواقب، أو تغليب المسيء لهواه على رشده"[2].

ومن آثار الجهل أيضا الإضلال. قال ابن عاشور في معرض تفسيره لقول الله تعالى ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:77]: "الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل. ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضر وهو المراد هنا. والمعنى: أن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتُها وقوعَهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام "[3].

ومما يسترعي الانتباه عند ابن عاشور، أنه كلما تكلم عن الفساد إلا وربطه بالجهل، فهما عنده صنوان متلازمان لا يفترقان. ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة: 205] توقف عند لفظتي[4] الفساد والإفساد وبين معناهما وعلاقتهما ببعضهما، وتكلم عن التجهيل أو ما سماه تكثيرَ الجهل في سياق ذمه لجملة من المفسدات التي صنفها ضمن المرتبة الأخطر وذكر منها

(1). التحرير والتنوير (4/ 278).

(2). التحرير والتنوير (5/ 132). بتصرف.

(3). التحرير والتنوير (16/ 272).

(4). قال: "والإفساد: فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض. والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضر به أو بغيره، وقد يطلق على وجود الشيء مشتملًا على مضرة، وإن لم يكن فيه نفع من قبل يقال: فسد الشيء بعد أن كان صالحًا، ويقال: فاسد إذا وجد فاسدا من أول وهلة، وكذلك يقال: أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه" التحرير والتنوير (1/ 284).

"إفساد المساعي كتكثير الجهل وتعليم الدعارة وتحسين الكفر ومُناوأة الصالحين المصلحين"[1]، منبها إلى أن "المنافقين قد أخذوا من ضروب الإفساد بالجميع"[2]. فالجهل أعظم فساد والتجهيل أكبر إفساد، وللمنافقين النصيبُ الأوفى والأوفر منهما. وكم نبه ابن عاشور إلى فظاعة الإفساد في الأرض[3]، معتبرا أن "وقوعه في رقعة منها تشويه لمجموعها"[4]. ومما يجلي اقتران الفساد بالجهل حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:140]»[5]. وقد ساق ابن عاشور هذا الحديث للاستدلال به على التلازم بين الجهل والفساد، لما أوردته تلك الآيات من فظائع وجرائم اقترفها العرب حال تلبسهم بالجهل.

ويؤيد ذلك الاقتران ما حكاه القرآن عن قصة ابني آدم وما شابَها من حادثة قتل أحدهما للآخر؛ إذ الجهل هو السبب الرئيس لتلك المفسدة، أي "الجهل بمغبة ما ينشأ عن القتل لأن البشر لم يعرف الموت إلا يومئذ ولذلك أسرعت إليه الندامة"[6]. وهكذا فالأسباب التي تؤدي إلى الانحراف عن الفطرة، لا يمكن أن تستفحل إلا في مجتمع يسوده الجهل بما يفسد النفس البشرية ويُفقدها الوازعَ الذي يمنع من الإفساد. قال ابن عاشور: "الإفساد هين الحصول وإنما يصد عنه الوازع، فإذا خلع المرء عنه الوازع وأخذ في الإفساد هان عليه الإفساد، ثم تكرر حتى

(1). التحرير والتنوير (1/ 284-285).

(2). التحرير والتنوير (1/ 285).

(3). قال: "والمراد بالأرض هذه الكرة الأرضية بما تحتوي عليه من الأشياء القابلة للإفساد من الناس والحيوان والنبات وسائر الأنظمة والنواميس التي وضعها الله تعالى لها" التحرير والتنوير (1/ 285).

(4). التحرير والتنوير (1/ 285).

(5). البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم 3524، كتاب المناقب، باب جهل العرب.

(6). التحرير والتنوير (2/ 304).

يصبح سجية ودأبًا لا يكاد يفارق موصوفه"[1]؛ فإذا بالمرء حينئذ يفعل أفعالا ويبتهج بها ويزعمها منتهى الحذق والفطنة وخدمة المصلحة الخالصة، وهي آيلة إلى فساد عام لا محالة، لكن المفسدَ وأمثالَه "لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه وللغشاوة التي ألقيت على قلوبهم من أثر النفاق ومخالطة عظماء أهله، فإن حال القرين وسخافة المذهب تطمس على العقول النيرة وتخف بالأحلام الراجحة حتى ترى حسنا ما ليس بالحسن"[2]، فيفضي اختلالُ الفطرة إلى ضياع الأمانة التي تكلم عنها الله عز وجل في قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب:72].

قال ابن عاشور في إثر تلك الآية: "إذا انقرضت الأمانة كان انقراضها علامة على اختلال الفطرة"[3]؛ معتضدا في ذلك بأن "الخلافة في الأرض هي القيام بحفظ عمرانها ووضع الموجودات فيها في مواضعها، واستعمالها فيما استعدت إليه غرائزها"[4]. ومرجع ذلك الاختلال الفطري بحسبه، واستنادا إلى الآية فهو يعود إلى ظلم[5] الإنسان وجهله[6]؛ خاصة عند استفحال ذلك والمبالغة فيه كما توحي بذلك لفظتا "ظلوم جهول"[7]، وقد أكده – أي ابن عاشور– حين قال: "قوله: (إنه كان ظلومًا جهولًا) مؤذن بكلام محذوف يدل هو عليه؛

(1). التحرير والتنوير (1/ 286).

(2). التحرير والتنوير (1/ 286).

(3). التحرير والتنوير (22/ 128).

(4). التحرير والتنوير (22/ 129).

(5). قال: " الظلم: الاعتداء على حق الغير وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة، وهو حق الوفاء بالأمانة" (22/ 130).

(6). قال: " الجهل: انتفاء العلم بما يتعين علمه، والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمل به" (22/ 130). .

(7). قال: "فظلوم مبالغة في الظلم وكذلك جهول مبالغة في الجهل" (22/ 130).

إذ التقدير[1]: وحملها الإنسان فلم يفِ بها إنه كان ظلومًا جهولًا"[2].فحصل أن "قصر في الوفاء بحق ما تَحَمله تقصيرا، بعضه عن عمد وهو المعبر عنه بوصف ظلوم، وبعضه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولًا"[3]؛ أي "جهولًا في عدم تقديره قدر إضاعة الأمانة من المؤاخذة المتفاوتة المراتب في التبعة بها"[4].

ويكفي الجهل ذمًّا وخطرًا، أن المتلبس به يفسد من حيث يظن أنه يصلح. قال ابن عاشور في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:11]: "عند التأمل يظهر أن هذا القول يكون قائلوه أجدر بالمذمة حين يقولونه في جواب من يقول لهم لا تفسدوا في الأرض، فإن هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض القلب وأفن الرأي، لأن شأن الفساد أن لا يخفى، ولئن خفي فالتصميم عليه واعتقاد أنه صلاح بعد الإيقاظ إليه والموعظة إفراط في الغباوة أو المكابرة وجهل فوق جهل"[5]، خاصة أن الناصحين لهم هُمْ "بعضُ مَن وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقرابة أو صحبة"[6].

ورحم الله أبا الطيب المتنبي إذ يقول:

أماتكم من قبل موتكم الجهل وجركم من خفة بكم النمل

ولفظاعة الجهل وشناعته، نجد ابن عاشور في تعليقه على قول الله تعالى: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة : 67] على لسان موسى، قال: "بالغ في التنزه بقوله أعوذ بالله

(1). قال: "ولولا هذا التقدير لم يلتئم الكلام لأن الإنسان لم يحمل الأمانة باختياره بل فطر على تحملها" (22/ 130).

(2). التحرير والتنوير (22/ 130).

(3). التحرير والتنوير (22/ 129-130).

(4). التحرير والتنوير (22/ 130).

(5). التحرير والتنوير (1/ 283).

(6). التحرير والتنوير (1/ 284).

أي منه لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله تعالى"[1].

ولذلك فصلاح الفطرة الإنسانية له تعلق طردي بمقدار الصلاح العلمي للعقول، فارتقاؤها يحصل بازدياد منسوب العلم، والانحدار ينتج بنقصه وارتفاع نقيضه الذي هو الجهل. ولذلك كانت مهمة الرسل السامية هي الإصلاح، الذي يتم عبر التعليم ومحاربة الضلال الآتي من الجهل، حسب ما قرره ابن عاشور إذ قال: "فالله بعث الرسل لإبطال الضلال الحاصل من جهل البشر بصلاحهم، فجاءت الرسل بالهدى"[2]. فالصلاح يتم إذن باتباع الهدى والابتعاد عن الجهل بما يُقرب من الحق، وأما الإعراض عن ذلك فيجعل صاحبه يمكث في الجهل والضلالة والباطل. لذلك كان "إبطال الاختلاف بين الحق والباطل"[3] غاية إرسال الرسل. وفيما سبق إشارات جمة تلفت الانتباه إلى مقصدية التعليم في القرآن الكريم وتوطئ لبسط الكلام بإزائه.

المطلب الثاني: مقصدية التعليم ومنزلته بين مقاصد القرآن عند ابن عاشور

بحسب ابن عاشور "التعليم مصدر علمه إذا جعله ذا علم "[4]، والعلم الذي يقصد القرآن إلى تعليمه هو العلم النافع، فالمقرر عند العلماء أن ليس من أغراض القرآن التصدي لتعليم إلا ما له أثر في التزكية النفسية وما يترتب عنه عمل صالح. ولذلك قال ابن عاشور في تدبره لسورة الفاتحة: "إن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مشوب بشُبه وغلط، ومن اعترف بهذين الأمرين فقد أعد نفسه لاتباع أحسنهما"[5].

(1). التحرير والتنوير (1/ 548).
(2). التحرير والتنوير (2/ 309).
(3). التحرير والتنوير (2/ 309).
(4). التحرير والتنوير (1/ 410).
(5). التحرير والتنوير (1/ 153).

ومما ركز عليه ابن عاشور في إحدى مقدمات[1] تفسيره، أنه عنى بمقاصد القرآن، وأحصى[2] المقاصد الأصلية – الكلية العامة – منها تبعا لاستقرائه في ثمانية أمور؛ كان من ضمنها التعليم. وقد عبر عنه بصيغة "التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين"[3]، وهي عبارة دقيقة تفيد الإحاطة والإلمام بالعلوم مهما تطورت وارتقت ومواكبتها، كما تفيد التجديد في الوسائل المعتمدة تبعا لتجدد العلوم وازدهارها. وفي ذات الآن هي عبارة تُنافي الجمود على المتوارث تقوقعًا دون غيره، كما تُنافي الالتصاق بوسائل بعينها دون سواها. ولقد أبدع ابن عاشور فعلا في عبارته تلك حينما صاغها على ذلك النحو، مما يدل على وعيه بأهمية العلوم النافعة وتكاملها ويُنبئ على إدراكه لمنقبة تجدد العلوم وحركيتها وديناميتها.

وقبل التفصيل في بعض التفاريع التي تُجلي هذه المقصدية للتعليم في القرآن، وتبرز بعض ملامحها، فإنه يَحسُن التعريج قبل ذلك على معنى[4] أن يكون التعليم مقصدا قرآنيا، حتى لا يُكتفى بالمرور عليه عبورا عاجلا يُنافي قدره المستحق. إذ حسب ابن عاشور فإن مقاصد القرآن الكلية تمثل أُمهات التصاريف (التفاريع) التي جاء كتاب الله لبيانها؛ كونُها ممهداتٍ لحفظ مقاصد[5] الدين مؤديةٍ إلى تحققها، وهي مما تعبد الله عباده بمعرفتها، كي تكون –

(1). المقدمة الرابعة، وعنوانها: "فيما يحق أن يكون غرض المفسر" التحرير والتنوير (1/ 38).

(2). قال: " أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور" التحرير والتنوير (1/ 39).

(3). التحرير والتنوير (الجزء 1/ 41).

(4). وإن كان وصفها بأنها مقاصد كلية قرآنية يجلي قدرا كبيرا من التعبير عن منزلتها العالية. إذ تكفي كل منسوب للقرآن تلك النسبة المشعرة بعظمته ومكانته العالية. فما بالك بمسمى مقاصد القرآن؛ التي لا غرو سيكون لها القدح المعلى من السمو والرفعة. وشرف المنسوب من شرف المنسوب إليه شيء مقرر، كما هو شرف العلم من شرف المعلوم.

(5). عندما يجتمع الحديث عن مقاصد القرآن ومقاصد الدين تكون الثانية مقاصدًا تثميرية للأولى، فهي مقاصد المقاصد. وعندما يفترقان فإن الأولى تعني مقاصد الخطاب، والثانية تعني مقاصد تنزيل الخطاب

سواء الجزئية منها أو الكلية – إمامهم في العمل ودليلهم عليه وقبلتهم في السير إلى الله تعالى المعبود وفي تحريهم لمراده منهم ولرضاه المنشود. قال رحمه الله: «فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بينا وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه"[1].

وتكتسب المقاصد القرآنية، بل كل مقصد منها مرتبَته العالية من كونه أساسًا لمراد الله في الناس من صلاح أمرهم فرديًّا وجماعيًّا وعمرانيًّا. قال ابن عاشور: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة، رحمةً لهم لتبليغهم مرادَ الله منهم. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[2].

ويكتسي التعليم تلك المنزلة السامية بين المقاصد القرآنية لكونه هو المطية إليها، ولأنه يتبوأ مكانة القلب في الجسد منها. أما المعالم المجُلية لمقصدية التعليم في القرآن الكريم، فهذه بعض من مفرداتها:

أولًا: التعليم مهمة المرسلين من الأنبياء والملائكة

لأهمية التعليم وجلاله في القرآن فيه، نجد سورة الصافات قد تكلمت عن المرسلين من الملائكة والأنبياء باعتبار مهمتهم التعليمية الهدائية العظيمة، ووجهت لهم تحية السلام في سياق من التبجيل والتكريم بين أمرين عظيمين أولهما تسبيح الله تعالى وثانيهما حمده عز وجل، وخلد القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [سورة الصافات: من 180 إلى 182]. قال ابن عاشور في معرض تدبره لتلك الآية: "وهذه الآية فذلكة (أي جمع وإجمال) لما احتوت

والتدين به، كما يمكن أن تنوب الواحدة عن الأخرى باعتبار علاقة التلازم الموجودة بينهما. وهذا من مستنتجات التأمل في كلام ابن عاشور.

(1). التحرير والتنوير (1/ 39).

(2). التحرير والتنوير (1/ 38).

عليه السورة من الأغراض، جمعت: تنزيه الله، والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمة على المسلمين من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم"[1]، معتبرا تلك المقاصد الثلاثة "أصولَ كمال النفوس في العاجل والآجل"[2]، ومعللا ذلك بكون "معرفة الله تعالى بما يليق به تُنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة"[3] أولًا، وبكون النفوس على تفاوتها في مراتب الكمال، وبحكم طبيعتها التي لا تسلم من نقص أو حيرة "في حاجة إلى مرشدين يبلغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى وذلك بواسطة الرسل إلى الناس وبواسطة المبلغين من الملائكة إلى الرسل. وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة"[4] ثانيًا، وبكون تلك النعمة – وأعظمها نعمة الهداية – تستوجب على المنعم عليهم حمد الله المنعم اعترافا وامتنانا وشكرا واستزادة، وهي ثالثة الأثافي. كما أن في إرسال الرسل وتكليفهم بتلك المهمة إضافة إلى كونهم حجة على الناس تحفيز وتيسير من الله تعالى على عباده، لذلك "بعث الرسل وشرع الشرائع فعلمنا بذلك كله أحوال الأشياء ومنافعها ومضارها، وعواقب ذلك الظاهرة والخفية، في الدنيا والآخرة، فأكمل المنة، وأقام الحجة، وقطع المعذرة، فهدى بذلك وحذر إذ خلق العقول ووسائل المعارف، ونماها بالتفكيرات والإلهامات، وخلق البواعث على التعليم والتعلم"[5].

ولذلك أكد ابن عاشور في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70] على أن السير في على منهاج العلماء وطريقهم حق للأمة تستوجب مخالفته الخسران لما فيها من تنكب عن الحق وقلب للحقائق فقال: "وهذا تعليم عظيم من القرآن بأن

(1). التحرير والتنوير (23/ 198).
(2). التحرير والتنوير (23/ 198).
(3). التحرير والتنوير (23/ 199).
(4). التحرير والتنوير (23/ 199).
(5). التحرير والتنوير (5/ 132).

من حق الأمم أن تكون سائرة في طريق إرشاد علمائها وهداتها، وأنها إذا رامت حمل علمائها وهداتها على مسايرة أهوائها، بحيث يعصون إذا دعوا إلى ما يخالف هوى الأقوام فقد حق عليهم الخسران كما حق على بني إسرائيل، لأن في ذلك قلبا للحقائق ومحاولة انقلاب التابع متبوعا والقائد مقودا، وأن قادة الأمم وعلماءها ونصحاءها إذا سايروا الأمم على هذا الخلق كانوا غاشين لهم، وزالت فائدة علمهم وحكمتهم واختلط المرعي بالهمل والحابل بالنابل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استرعاه الله رعية فغشها لم يشم رائحة الجنة»[1].

ثانيا: التحضيض على التعلم والتعليم في سياق التحريض على الجهاد

ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

قال ابن عاشور في إثر هذه الآية: "لا جرم كانت قوة الكلام مؤذنة بوجوب تمحض المسلمين للغزو. وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه"[2]، وقد أضاف رحمه الله قاصدا الموازنة بين الجهاد وطلب العلم أن "اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء

(1). البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (برواية قريبة). عن معقل بن يسار جاء فيها "ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة"، حديث 7150، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح.

(2). التحرير والتنوير (11/ 59).

والسـاسـة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السـلطان، ولذلك لم يثبت ملك اللمتونيين في الأندلس إلا قليلا حتى تقلص، ولم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها ووكلوا أمر الدولة إليهم"[1]. لِيُذكر فيما بعد بأمر في غاية الأهمية حينما بين أن الآية السابقة إذ كانت "قد حرضت فريقا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو لمصلحة نشر الإسلام"[2]، فإنه "ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام"[3]، معرجا على ما في الآية من محاسن البيان الذي "قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم"[4]. وبين أنه كما أن"النفر للغزو كان واجبا لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة"[5]، فإن هذه الآية تعد أصلا كذلك "في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبا على الكفاية، أي على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الإيجاب"[6]. وقد توقف رحمه الله عند الألفاظ الواردة في الآية ومنها كلمة "الإنذار"، الذي قال أن المراد منه هنا "الإنذار من المهلكات في الآخرة"[7]. وأن "الإنذار هو الموعظة"[8]، أما الاقتصار عليه فلأهميته "لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ؛ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين

(1). التحرير والتنوير (11/ 59).
(2). التحرير والتنوير (11/ 59).
(3). التحرير والتنوير (11/ 59).
(4). التحرير والتنوير (11/ 59).
(5). التحرير والتنوير (11/ 60).
(6). التحرير والتنوير (11/ 60).
(7). التحرير والتنوير (11/ 62).
(8). التحرير والتنوير (11/ 62).

للمتعلمين"[1]، وقد لفت في ذات السياق الانتباه إلى حذف مفعول "يحذرون" لأجل التعميم، أي يحذرون ما يُحذر من فعل المحرمات وترك الواجبات.

ثالثًا: القرآن في حد ذاته هو كتاب علم وتعليم

فقد امتن الله المنان على الرسول صلى الله عليه وسلم -وهو المنة الإلهية الكبرى- بمنة القرآن الكريم في عدة آيات بينات من كلامه عز وجل، مبينا منزلته وفضائله العلمية وآثاره التعليمية، ومن ذلك ما تضمنه من قصص، والقصة درجَ الناس أنها في الأصل الغالب تكون للتسلية، لكن القرآن الكريم حكاها بأسلوب لا يخلو من عبر ودروس وعلى نحو متميز بقصد التعليم والتوجيه والتربية.

ومثال ذلك نجده قد ساق كلاما على لسان رجل يخاطب قومه وهو في الجنة استمرارا في تعليمهم الذي بدأه في الدنيا بعد انتقاله إلى الدار الآخرة. وقد أورد هذا ابن عاشور في سياق تناوله لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: 26-27]، وقال رحمه الله: "وجملة (قال يا ليت قومي يعلمون) مستأنفة أيضا استئنافا بيانيا لأن السامع يترقب ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة. والمعنى: أنه لم يلهه دخوله الجنة عن حال قومه، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا، وما تمنى هلاكَهم ولا الشماتَة بهم فكان متسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض ولا قيمة للحظوظ الدنية وسفساف الأمور"[2]. وإنه لمشهد لافت بليغ في إبراز منزلة القصد التعليمي في القرآن والإفصاح عنه.

ومثال آخر كذلك عند قصة عرض آدم الأسماء التي تعلمها على الملائكة؛ كما هو مضمن في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي

(1). التحرير والتنوير (11/ 62).

(2). التحرير والتنوير (22/ 371).

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: 30]. حيث قال ابن عاشـــور: "إن تعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم إني أعلم ما لا تعلمون؛ أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض"[1]، لأن "وظيفة هذا الاستخلاف تدبير وإرشاد وهدي ووضع الأشياء مواضعها دون احتياج إلى التوقيف في غالب التصـرفات"[2]. فهي خلافة "لا تتقوم إلا بالعلم" [3]. دون أن يعني ذلك أفضـلية[4] آدم على الملائكة.

وغيرها من القصـــص والأمثال القرآنية الدالة على المقصـــد التعليمي في القرآن الكريم. فبتدبر أي قصة قرآنية أو مثل من أمثاله، نجد في ذلك نصيبا معينا من العبر والدروس والحِكم التي يُقصـد تعليمها للناس على نحو ما، لأجل الإفادة منها والاسـترشـاد بها في دروب الحياة المتشعبة.

ومن ثم فقد جاء القرآن الكريم "بيانا لا يترك للباطل مسلكًا إلى النفوس، ومفصـحًا عن الهدى إفصـــاحًا لا يترك للحيرة مجالًا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة"[5]. فكان بهذا القصـــد التعليمي السـبيل إلى هداية الناس ورفع الجهل عنهم، وتبيان أصول الخير الجامعة لهم بما يحقق اهتداءهم واستقامتهم التي تعد سبيلًا مُقربة إلى المرحمة ومحجة مُبعدة عن المسغبة، وهذا ما أَكدَه ابن عاشور إذ قال: "فالقرآن أهم مقاصده

(1). التحرير والتنوير (1/ 407).

(2). التحرير والتنوير (1/ 413).

(3). التحرير والتنوير (1/ 419).

(4). قال: "والآية تقتضـــي مزية عظمى لهذا النوع في هذا الباب وفي فضـــل العلم ولكنها لا تدل على أفضلية النوع البشري على الملائكة إذ المزية لا تقتضي الأفضلية كما بينه الشهاب القرافي في الفرق الحادي والتسعين فهذه فضيلة من ناحية واحدة وإنما يعتمد التفضيل المطلق مجموع الفضائل كما دل عليه حديث موسى والخضر" التحرير والتنوير (1/ 419).

(5). التحرير والتنوير (14/ 195).

هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحق وحصول أثر ذينك الأمرين، وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى"[1].

ونلحظ أنه رحمه الله في هذا الاقتباس- وهو يرسخ مقصدية التعليم في القرآن ويؤكد عليها- يتكلم عن المعارف الحقة باعتبارها ماحقةً للجهل وهاديةً للحق ومُفضيةً إلى الرحمة. مما يطرح سؤالا يُمهد للمحور الآتي في هذا البحث، ويتعلق بـــــــ: ما هي أصناف العلوم والمعارف التي اهتم بها القرآن الكريم؟

(1). التحرير والتنوير (14/ 196).

المبحث الثاني

أي علوم عني القرآن بها وبتعليمها حسب ابن عاشور؟

المطلب الأول: علوم الدين هداية للإنسان وحفاظا على فطرته

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [سورة النحل: 64]. هذه الآية تبين أن أبرز مقاصد القرآن: الهداية والرحمة اللتين تحصلان للإنسان على بساط مقصد الإيمان. ولقد أنزل الله القرآن "لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم"[1]؛ فتبينت من خلال ذلك "الحكمة في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن إليه"[2].

وهكذا في تناوله[3] لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [البقرة: 282]، أكد ابن عاشور أن الإسلام من أجل النعم الإلهية التي من بها الله على عباده، والعلم به أعظم العلوم وأنفعها، لأنه السبيل إلى الإخراج من الجهالة إلى الهدى بما يرشد إليه من تشريعات ونظام، وبما يدل عليه من التقوى التي هي "ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق"[4]، بل هي "سبب إفاضة العلوم"[5]بحسب ما تومئ إليه الآية التي جاء فيها فعل (يعلمكم) مضارعًا منسوبًا إلى الله تعالى؛ ليبين أن ذلك وعد من الله مستمر محقق لأمة الإسلام إن هي أخذت بأسبابه وأبوابه.

وقد نوه ابن عاشور كثيرًا بأثر القرآن في هداية الإنسان وإعادة صياغته وبنائه، معطيًا المثال بما حصل للصحابة رضوان الله عنهم – على تفاضلهم – عند معايشتهم لنزول القرآن وتفاعلهم مع تعاليمه وتوجيهاته الربانية، وهم يقتبسونها غضة طرية مِن فِي رسول القرآن الذي

(1). التحرير والتنوير (14/ 195).
(2). التحرير والتنوير (14/ 195).
(3). التحرير والتنوير (3/ 118).
(4). التحرير والتنوير (3/ 118).
(5). التحرير والتنوير (3/ 118).

تمثلها وتحقق بها على أبهى صورة وأكملها، حتى كان قرآنًا يمشي على الأرض عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. ومن ذلك نجده في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سورة سبإ:6]، قال: «والأظهر أن المراد من الذين أوتوا العلم: مَن آمنوا بالنبيء صلى الله عليه وسلم من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن. وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه، فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظا غليظا حتى إذا أسلم رق قلبه وامتلأ صدره بالحكمة وانشرح لشرائع الإسلام واهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم. وأول مثال لهؤلاء وأشهره وأفضله هو عمر بن الخطاب للبون البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام»[1].

ولذلك كان من أعظم الجهل الكفر وما يترتب عنه، ومن أعظم العلم الإيمان وما يتأتى عنه؛ لأن "شرائع أهل الكفر تأمر بالمفاسد والضلالات وتصرف عن المصالح والهداية بسبب السلوك في طرائق الجهل وتقليب حقائق الأمور، وما من ضلالة إلا وهي تفضي بصاحبها إلى أخرى مثلها، والإيمان بخلاف ذلك"[2]. وقد عمل القرآن –حسب ما أورده ابن عاشور وهو يوطئ لتفسير سورة الروم– على تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني، ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله"[3]. ويبدو أنه يعني بذلك قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:7]، وقوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم:9]. حيث أنزلتهم الآية الأولى "منزلة من لا علم عندهم أصلا لأنهم

(1). التحرير والتنوير (22/ 146).
(2). التحرير والتنوير (9/ 343).
(3). التحرير والتنوير (21/ 41).

لما لم يصلوا إلى إدراك الأمور الدقيقة"[1]، وقللت من حظهم العلمي واصفة حالتهم العلمية بِـ "أن قصارى تفكيرهم منحصر في ظواهر الحياة الدنيا"[2]. "وكان ما عندهم من بعض العلم شبيها بالعدم إذ لم يبلغوا به الكمال الذي بلغه الراسخون أهل النظر، فيكون في ذلك مبالغة في تجهيلهم وهو مما يقتضيه المقام"[3].

وقد لفت ابن عاشور رحمه الله أن الكلام في الآية يشعر بذم حالهم الذي محطه جملة (وهم عن الآخرة هم غافلون)، التي تفيد أن "معرفة الحياة الدنيا ليست بمذمة لأن المؤمنين كانوا أيضا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالما آخر هو عالم الغيب"[4]. مع الاكتفاء في تجهيلهم بعالم الغيب اقتصارا على الجهل بوجود الحياة الآخرة، وأبئس به من جهل، لِمَا يتبع ذلك من الإيقاع بهم وتوريطهم في "إهمال رجاء الآخرة وإهمال الاستعداد لما يقتضيه ذلك الرجاء"[5]. لكن وإن كان التقدم المادي غير مذموم في الآية الأولى، فإن الآية الثانية تنبئ أنه لا يعتد به شرعا إذا كان مجردا عن الإيمان بالله، وغير ممتزج بمعرفة الآخرة، ولا يسعى إليه السعاة على ذلك البساط الغيبي الذي يجعل منه خادما للإنسان على وفق التسخير الرباني، ومفضيا إلى الاستخلاف المطلوب منه في هذه البسيطة على نحو يحقق العمران الحقيقي المقصود الذي يسعد الناس عوض أن يكون وبالا على أصحابه ودمارًا على البشرية جمعاء – وإن بدا زاهيًا سامقًا منتفشًا – كما تشهد على ذلك الوقائع التي سجلها التاريخ ولازال يسجلها إلى اليوم. وما ذلك إلا بسبب جهل الإنسان برسالات ربه ونأيه عن الغاية التي خلقه الله لأجلها، بما يحول بينه وبين الأمانة التي كلفه خالقه بها واستأمنه عليها، فتغيب

(1). التحرير والتنوير (21/ 49).
(2). التحرير والتنوير (21/ 49).
(3). التحرير والتنوير (21/ 49).
(4). التحرير والتنوير (21/ 50).
(5). التحرير والتنوير (21/ 50).

المصالح والمنافع والحِكم المقصودة من الشارع عز وجل، ويحل محلها الظلم والفساد والخسران المبين في الدنيا والآخرة، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: 72]، وقد سبقت الإشارة إلى بعض ما أثاره ابن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآية.

وإذ نقول علم الدين، فهو ليس علما واحدا، وإنما يشمل عدة علوم لمح إليها ابن عاشور في حديثه عن مقاصد القرآن وما يترتب عنها من صلاح فردي وجماعي وعمراني، حيث قال عن الصلاح الفردي أنه "يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر"[1]، مشيرا بذلك إلى ما به تنصلح النفس من علوم التزكية اعتقادًا وعبادة وأخلاقًا. وقال عن الصلاح الجماعي أنه "يحصل أولًا من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية"[2]، فبين أن صلاح الجماعة يقوم على صلاح الفرد كما أُشير آنفا إضافة إلى صلاح المعاملات أو السياسة المدنية على حد تعبير من يسميها بذلك. وأما عن الصلاح العمراني فقد أخبر "أنه أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع"[3]. ليتأكد بجلاء أن كل تلك العلوم المتنوعة، سواء الخادمة للفرد تزكية أو للجماعة توليفًا أو للعمران رقيًا، متكاملةٌ فيما بينها ومتصلةٌ

(1). التحرير والتنوير (1/ 38).
(2). التحرير والتنوير (1/ 38).
(3). التحرير والتنوير (1/ 38).

بالدين وتقوم على كلياته ومقاصده، ولا يمكن إقصاء أي منها أو إخراجه من الدائرة الدينية أو إهماله؛ لما يفضي إليه ذلك الاستغناء من مفاسد و مضار في هذا الاتجاه أو ذاك مما سبق ذكره. قال ابن عاشور: "والمهم من الحكمة في نظر الدين أربعة فصول: أحدها معرفة الله حق معرفته...، الثاني ما يصدر عن العلم به كمال نفسية الإنسان، وهو علم الأخلاق. الثالث تهذيب العائلة، وهو المسمى عند اليونان علم تدبير المنزل. الرابع تقويم الأمة وإصلاح شؤونها وهو المسمى علم السياسة المدنية، وهو مندرج في أحكام الإمامة والأحكام السلطانية. ودعوة الإسلام في أصوله وفروعه لا تخلو عن شعبة من شعب هذه الحكمة "[1].

المطلب الثاني: العلوم الدنيوية[2] النافعة خدمةً للمقصدين العمراني والاستخلافي

عندما تكلم ابن عاشور عن مقصد التعليم في القرآن الكريم فقد نبه إلى العلوم كلها؛ إذ بين أن الإسلام عند انبعاثه حصل أن تأهل المسلمون في ظله بما جعلهم يتلقون الشريعة وينشرونها، وتكلم عن "علم الشرائع وعلم الأخبار"[3] دون الاكتفاء بالوقوف عند ذلك الحد الذي كان "مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب"[4]، بل "زاد القرآن على ذلك تعليم ميزان العقول"[5] من خلال دعوته للنظر والاستدلال الصحيح في المجادلة. كما لم لفت الانتباه إلى أن القرآن "نوه بشأن الحكمة"[6] في مثل قول الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:

(1). التحرير والتنوير (3/ 63).

(2). العلوم الدينية يقصد بها غالبا العلوم التي تستمد أصولها من الدين ومن مصادره الأساسية كتابًا وسنة. وأما العلوم الدنيوية فهي التي لا تستمد بناءها النظري من الدين وإن كان في مصادره شيء مما يشير إلى تلك العلوم فيسوغها أو يلمح إلى أهميتها تصريحًا أو إيماء وتلويحًا.

(3). التحرير والتنوير (1/ 41).

(4). التحرير والتنوير (1/ 41).

(5). التحرير والتنوير (1/ 41).

(6). التحرير والتنوير (1/ 41).

269]، معتبرًا أن باب الحكمة هذا "أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم"[1]، كما أشير آنفًا، وهي مسألة أولاها الإمام ابن عاشور عناية خاصة ونوه ويعاود التنويه بها عند كل سانحة؛ ليرسخ اهتمام كتاب الله بالحكمة وبما يلحق بها من "التنبيه المتكرر على فائدة العلم"[2] على نحو جديد لم يسبق[3] أن طرق أسماع العرب. فيتأكد أن الإسلام جاء ليعلمهم من العلم الجوانب العلمية التي كانت محل اهتمام لدى أهل الكتاب من شرائع وأخبار، وضروبًا علمية جديدة أخرى؛ لينبئ من خلال ذلك أن تحصيل العلوم –كل العلوم– مطلوبة من المسلمين ما استطاعوا إليها سبيلا وأن الإسلام يدعوهم ويستحثهم على التعلم والتعليم سعيًا وجمعًا وإحاطة؛ قاصدًا من ذلك تبوأهم العلم كما يتبوأون الإيمان انسجامًا مع الخيرية التي انتدبهم واصطفاهم الله لها إعدادًا واستعدادًا لمهمة الاستخلاف والعمران التي أناطها بهم. قال ابن عاشور: "وقد أفاض القرآن في ذلك وتدرج فيه من درجة إلى أختها بأسلوب بديع في مجادلة المخاطبين وأفاد فيه تعليم المسلمين حتى لا يفوتهم علماء بني إسرائيل"[4]، وقال أيضا: "وكان علم عامة اليهود في هذا الشأن ضعيفًا وإنما انفردت بعلمه علماؤهم وأحبارهم فجاء القرآن في هاته المجادلات معلمًا أيضًا للمسلمين وملحقًا لهم بعلماء بني إسرائيل حتى تكون الدرجة العليا لهم لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ونباهتهم الفكرية فتصبح عامة المسلمين مساوية في العلم لخاصة الإسرائيليين وهذا معنى عظيم من معاني تعميم التعليم والإلحاق في مسابقة التمدين"[5].

ولذلك نجد ابن عاشور في أحد تقسيماته للعلم، أخبر أنه نوعان: علم اصطلاحي وعلم

(1). التحرير والتنوير (1/ 41).

(2). التحرير والتنوير (1/ 41).

(3). توضيحا لهذه المسألة قال ابن عاشور: "إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادًا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء" (1/ 41).

(4). التحرير والتنوير (1/ 448).

(5). التحرير والتنوير (1/ 448).

حقيقي، وعرف الاصطلاحي بـ "ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء"[1]، منبها أنه "قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة"[2]. وعرف الحقيقي بأنه "معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلًا وآجلًا"[3]، مستدركًا أن "كلا العلمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم"[4]، ومشيرًا أن "بين العلمين عموم وخصوص من وجه"[5] أي يلتقيان في أشياء ويفترقان في أشياء.

وأكد رحمه الله أنْ " قد اشتمل القرآن على النوعين"[6]، مبرزا أن النوع الأول "تناولُه قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظرا"[7]، لأن "مَبْلغَ العلم عندهم يومئذ علومُ أهل الكتاب ومعرفةُ الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم"[8]. وذكر نزرا[9] مما ذكره القاضي عياض في الشفاء بإزاء ذلك. ومما يدل على ذلك بجلاء آيات القرآن الكريم الوافرة في الباب؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

(1). التحرير والتنوير (1/ 126).
(2). التحرير والتنوير (1/ 126).
(3). التحرير والتنوير (1/ 126).
(4). التحرير والتنوير (1/ 126).
(5). التحرير والتنوير (1/ 126).
(6). التحرير والتنوير (1/ 126).
(7). التحرير والتنوير (1/ 126).
(8). التحرير والتنوير (1/ 126).
(9). قال: "ولعل هذا هو الذي عناه عياض بقوله في «الشفاء»: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قضى عمره في تعليم ذلك فيورده النبيء صلى الله عليه وسلم على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان» إلخ كلامه" التحرير والتنوير (1/ 126).

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ ﴾ [الأنعام: 156- 158] وقوله عز من قائل: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ [هود: 49] وغيرها مما كان يأتي لمخاطبة أهل الكتاب ومحاجتهم.

وأما النوع الثاني فقد جعله قسمين اعتبرهما دليلين[1] على إعجاز القرآن: "قسم يكفي لإدراكه فهمُه وسمعُه، وقسم يحتاج إدراكُ وجهِ إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم"[2]. فالقسم الأول ما احتاج إلى فهم ثاقب، ولعله المشار إليه بالخاص فيما ساقه ابن عاشور من كلام ابن عرفة إذ قال: "كان بعضهم يقول إن القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص"[3]، والثاني ما احتاج إلى علوم تأتي وتتكشف مع التطور عبر الوقت. قال الطاهر ابن عاشور في معرض كلامه عن التشابه الدلالي في القرآن قال: "ثم إن العلوم التي تعرض لها القرآن هي من العلوم العليا: وهي علوم فيما بعد الطبيعة، وعلوم مراتب النفوس، وعلوم النظام العمراني، والحكمة، وعلوم الحقوق. وفي ضيق اللغة الموضوعة عن الإيفاء بغايات المرادات في هاته العلوم، وقصور حالة استعداد أفهام عموم المخاطبين لها، ما أوجب تشابها في مدلولات الآيات الدالة عليها. وإعجاز القرآن: منه إعجاز نظمي ومنه إعجاز علمي...، فلما تعرض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها، فيما تعرض إليه، جاء به محكيا بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربما كان إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولًا لأقوام، فيعدون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه فإذا جاء من بعدهم علموا أن

(1). قال: "كلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم". (1/ 127).

(2). قال: "كلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم". (1/ 127).

(3). التحرير والتنوير (1/ 127).

ما عده الذين قبلهم متشابها ما هو إلا محكم"[1]. وهذا النوع هو الذي سيكون مثار نقاش بعد حين، حيث سنقف على مناظرة ماتعة ضافية من ابن عاشور للشاطبي رحمهما الله بإزاء هذه المسألة.

ومما يؤكد منظور ابن عاشور واقتناعه بتضمن القرآن للعلمين معا، نجده في تفسيره للقرآن الكريم، قد أقر بأن التفسير مجال فسيح لتناول المسائل العلمية المختلفة فيما سماه "الجلب العلمي"[2] كلما تهيأ المقام لذلك أثناء النظر في آية سَنَحَتْ مناسبةٌ بها "للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع"[3]. كما نجده قد ضرب أمثلة[4] مما دأب عليه العلماء في ذلك؛ حيث فرعوا وفصلوا في الأحكام والأخلاق والآداب بما يفتل في حبل المقاصد القرآنية ولا يصادمها، ثم تكلم مثلا عن "تقرير مسائل من علم التشريح لزيادة بيان قوله تعالى في خلق الإنسان: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: 67]، فإنه راجع إلى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية"[5]، وتكلم عن قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: 7] إذ نأخذ منه "تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة"[6]، وكذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]، فبين أن "القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة"[7]، ومن ثم "فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيأة كان قد زاد

(1). التحرير والتنوير (3/ 157).

(2). مفهوم دارج عند ابن عاشور تُعرفه العبارة التي تليه في السياق.

(3). التحرير والتنوير (1/ 42).

(4). مثل ما ذكره ابن عاشور في نفس السياق عن حجة الإسلام الغزالي في كتاب "الإحياء" وغيره، وعن ابن العربي، وعن المتكلمين وأهل المذاهب مما أثلوه في كتبهم.

(5). التحرير والتنوير (1/ 42).

(6). التحرير والتنوير (1/ 43).

(7). التحرير والتنوير (1/ 43).

المقصود خدمة"[1]. وكما "يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [الكهف: 47] أن فناء العالم يكون بالزلازل، ومن قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1] أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم"[2]. دون أن يغض الطرف رحمه الله أو يهون من التنبيه إلى ضـــوابط[3] ذلك المسلك وقواعده تسديدًا وترشيدًا.

ولأهمية المسـألة – مسـألة صـلة القرآن بالعلوم جل العلوم – ومركزيتها، فقد أدلف ابن عاشـور إلى مناقشـتها محاولًا تحرير الكلام فيها، حيث أخبر عن موقف العلماء منها مصـرحًا أن لهم فيها "على الإجمال آراء"[4]، ومميزا بين فريق ارتأى اسـتحسـانها وبين فريق لم يره، قبل أن يسعى رحمه الله إلى إبداء رأيه الخاص على نحو من الجمع بين الآراء ومن التمحيص المعهود فيه. حيث انطلق من بيان رأي الموافقين ممثلًا لهم على وجه الترتيب بابن رشـد وقطب الدين الشـيرازي وأبي حامد الغزالي والإمام الرازي وأبي بكر ابن العربي – وإن كان سـيسـتدرك عليه فيما بعد – وأمثالهم، وثنى برأي المعارضـين ممثلًا لهم بالإمام الشـاطبي، ومعرجا على رأي من يسـتسـيغ التوفيق بين القرآن والعلوم باسـتثناء بعضـها مثل ابن العربي، ليعقب بعد ذلك على الجميع بخلاصـة في الموضـوع. فابتدأ إذن وقال: "**فأما جماعة** منهم فيرون من الحسـن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية، ويرون القرآن مشـــيرا إلى كثير منها"[5]،

(1). التحرير والتنوير (1/ 43).

(2). التحرير والتنوير (1/ 43).

(3). ومن ذلك أنه قال: "وشرط كون ذلك مقبولًا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له" التحرير والتنوير (1/ 43).

(4). التحرير والتنوير (1/ 43).

(5). التحرير والتنوير (1/ 43).

ولذلك بحسبه كان "صنيعهم يقتضي التبسط وتوفيق المسائل العلمية"[1] مستشهدًا[2] على دأبهم ذاك ببعض النماذج. ثم قال: "**وأما أبو إسحاق الشاطبي**"[3] – مكتفيًا به باعتبار قامته العلمية الكبيرة عند إيراد رأي المانعين– ليردف بقوله في المسألة الذي سيُرجع إليه بعد قليل في معرض مناقشة ابن عاشور له بعد أن طفق إلى ابن العربي قائلا: "**وذهب ابن العربي** في «العواصم» إلى إنكار التوفيق بين العلوم الفلسفية والمعاني القرآنية ولم يتكلم على غير هاته العلوم وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لأجل ما خولطت به من الضلالات الاعتقادية وهو مفرط في ذلك مستخف بالحكماء"[4].

مناقشة ابن عاشور لمذهب الشاطبي وإعطاؤه رأيا جامعًا في المسألة:

لقد أورد ابن عاشور قولين للإمام الشاطبي في المسألة، أحدهما يفصل إجمال الآخر. قال في الأول: «لا يصح في مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عامًا لجميع العرب، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه»[5]، وقال في الثاني: «ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب تنبني عليه قواعد، منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهها وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح فإن السلف الصالح كانوا أعلم بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أن أحدا منهم تكلم في شيء من

(1). التحرير والتنوير (1/ 44).

(2). قال: "فقد ملأوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكمية وغيرها، وكذلك الفقهاء في كتب «أحكام القرآن»، وقد علمت ما قاله ابن العربي فيما أملاه على سورة نوح وقصة الخضر، وكذلك ابن جني والزجاج وأبو حيان قد أشبعوا «تفاسيرهم» من الاستدلال على القواعد العربية" التحرير والتنوير (1/ 44).

(3). التحرير والتنوير (1/ 44).

(4). التحرير والتنوير (1/ 45).

(5). التحرير والتنوير (1/ 44).

هذا سوى ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة. نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة إلخ»[1].

إذ يَظهر أن الشاطبي يقرر أن الفهوم المسموح بها للقرآن ينبغي أن تنضبط بالفهم العربي العام، تحت سقف قدرة عموم العرب وبما لا يتجاوزها، وذلك – بحسبه رحمه الله – مراعاةً وانسجامًا مع أمية الشريعة التي جاء خطابها على معهود العرب ولسانهم، وأتت جارية على مذاهبهم. فيكون كلامه مبنيًّا على قاعدتين أساسيتين على حد ما فُهم من تعبيره؛ هما:

-لا ينبغي الإقرار بوجود علوم في القرآن غير أحكام التكاليف وأحكام الآخرة، اتباعا لعلماء السلف من الصحابة والتابعين.

-لا ينسب للقرآن من العلوم، إلا ما نَسب لنفسه من العلوم التي كانت لدى العرب وقت النزول، رغم أن الجملة[2] الأخيرة من كلامه تحتاج إلى تدبر.

وهما يتطابقان مع ما خلص إليه ابن عاشور حين قال عن رأي الشاطبي السابق: "وهذا

(1). التحرير والتنوير (1/ 44).

(2). قال فقط: " حيث يقول: "نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة إلخ». فكلمة "إلخ " تنوب عن بقية الكلام الذي لم يُدرجه ابن عاشور لكنه يبدو مفيدا جدا لو أُدرج، حيث تصبح العبارة: " ... ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك، فلا" الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، الجزء الثاني ص 79. وهي عبارة ظاهر كلام الشاطبي فيها يعني أن ما يكون القرآن قد تكلم عليه من علوم العرب ليس حتى للعلماء الراجحين إدراكها إلا بإرشاد القرآن وبيانه. أي لا يمكن لأحد من هؤلاء القول بوجود علم ما من ذلك الصنف إلا بسند واضح بَيِنٍ من القرآن، لا برأي أو استنباط. فالشاطبي لا يمانع بالاكتفاء بما جاء في القرآن من علوم العرب على نحو شديد الخفاء لما يثيره من تعجب حتى لدى الراسخين في العلم بعد كشف القرآن نفسه عن ذلك. لذلك فهو كلام يحتاج إلى تدبر وتمحيص، ليُنظر ما إن كان فيه رائحة تناقض أو أنه ينبغي فهمه على وجه من التخصيص.

مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابا للأميين وهم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأن الشريعة أمية"[1]، ليردفه قائلا: "هو أساس واه لوجوه ستة"[2]، نسوقها في الآتي:

أولًا. موقف الشاطبي مبني على بقاء العرب جامدين على حالهم دون أي تحول أو تغير رغم نزول القرآن ورسالة الإسلام.

قال "أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل"[3]. ومن ثم يكون مستقيما لو كان الأمر فعلا كذلك، أما وهو غير ذلك، فإنه يفتقد الإصابة. والقرآن نفسه يشهد بطروء أشياء علمية جديدة على العرب بعد الإسلام، حيث يقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ ﴾ [هود: 49].

ثانيًا. موقف الشاطبي يناقض عموم الدعوة من حيث الزمان والمكان والمتغيرات، وتناقض مقصد إعجازه الذي يقتضي استمرار مواكبته لكل عصر ومعطياته. أي "لا بد أن يكون فيه (أي في القرآن) ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة"[4]، ويستوعب معاني علمية تتكشف رويدًا رويدًا عبر مرور الوقت أثناء تطور العلوم أو ميلاد أخرى جديدة. ولذلك نجد ابن عاشور بقدر ما يلتمس العذر للشاطبي فهو يستنكر عليه مذهبه، فيقول: "ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصي من مشكلات في مطاعن الملحدين اقتصادا في البحث وإبقاء على نفيس الوقت، وإلا فكيف ينفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور، وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته، وإذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة، فهذا إعجاز

(1). التحرير والتنوير (1/ 44).
(2). التحرير والتنوير (1/ 44).
(3). التحرير والتنوير (1/ 44).
(4). التحرير والتنوير (1/ 45).

إقناعي بعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن"[1].

ثالثًا. موقف الشاطبي يقتضي انحصار معاني القرآن وينافي ما قرره السلف من إفاضة معانيه وتوافرها الذين "قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لا نقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه"[2].

رابعًا. توافر معاني القرآن وثراء ألفاظه بما تكتنزه منها انسجامًا مع تمام إعجازه الذي يقتضي "أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة" [3].

خامسًا. مقتضى نزول القرآن مراعيا لمقدار أفهام المخاطبين به ابتداء، يقضي فقط "أن يكون المعنى الأصلي مفهومًا لديهم"[4] لا أن يتساوى العرب آنئذ ومن أتى بعدهم ومن سيأتي فيما زاد عن تلك المعاني الأساسية من الفهوم المتعددة الممكن تفتقها عبر توالي الأزمان.

سادسًا. مسألة التكلف عند السلف التي استند إليها الإمام الشاطبي ليست على إطلاقها، وإنما عنوا به التكلف الذي يكون متعسفا يصادم مقاصد القرآن أو ينأى عنها، ولا يعد تكلفًا ما يخدمها ويفتل في حبلها على نحو ما. وهو ما أفصح عنه ابن عاشور بتفصيل حين قال: "عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعًا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضا، لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث

(1). التحرير والتنوير (1/ 128).
(2). التحرير والتنوير (1/ 45).
(3). التحرير والتنوير (1/ 45).
(4). التحرير والتنوير (1/ 45).

العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطي التفسير أوسع قريحة في العلوم"[1].

كما أعقب ذلك بكلام استدلالي برهاني نفيس جاء فيه: "لا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب تعالى وتقدس لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه[2].

حتى يؤكد بهذا أن كلام الله تعالى منفتح على الفهوم المستندة إلى الحقائق العلمية مهما تجددت وتعددت، دون أن يغفل بأن الأمر يحتاج إلى منهج مضبوط[3] ناءٍ عن أي تهيب حاجب أو انفلات سائب. وليخلص ختاما إلى رأيه في هذه المسألة الفريدة قائلا: "**وأنا أقول**: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب: الأولى، علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، و"تهذيب الأخلاق" و"الفقه والتشريع" و"الاعتقاد" والأصول والعربية والبلاغة. الثانية، علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات. الثالثة، علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق. الرابعة، علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي"[4]. ولقد أبدع الإمام ابن عاشور في بسط[5] المسألة أكثر من خلال تناوله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: «ما من الأنبياء نبيء إلا أوتي- أو أعطي- من

(1). التحرير والتنوير (1/ 45).

(2). التحرير والتنوير (1/ 44).

(3). قال رحمه الله عن المسلك الصحيح في التوفيق بين القرآن والعلوم: "وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية" التحرير والتنوير (1/ 44).

(4). التحرير والتنوير (1/ 44).

(5). التحرير والتنوير (1/ 128 وما بعدها).

الآيات ما مثله آمن عليه البشـــر وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» [1] فأجاد وأفاد. فليرجع إليه من يهمه الأمر.

فنتخلص من كل ما سبق إلى أن القرآن الكريم كتاب علم وتعليم بامتياز لا نظير له. مما يدفع للتساؤل: ما الأسباب تبعا لذلك في التخلف العلمي الذي تعيشه أمة القرآن ؟! سؤال يورده سائل بنوع من التعجب إن لم نقل الحيرة، خاصة بعد الإدراك الواعي لمنزلة العلم بكل مشتقاته في كتاب الله تعالى!! بله سؤال آخر: إذا كان للعلوم الدنيوية تلك المنزلة السامقة وذلك المقام الباسق، فكيف للأمة المسلمة أن تشتبك عقولها المفكرة بهذا النموذج المعرفي الراقي فكرًا ونظرًا؛ حتى يحصـــل التثمير تنزيلا وتفعيلا عمليا في واقعها، فتترقى وتتطور علمًا وعملًا، وتضاهي غيرها وتخرج من حالة الاستهلاك السلبي والعالة على سواها إلى حالة الإنتاج والتفوق وإصباغ تلك العلوم بصبغة تناسب الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ فتستنزل شـــهودها المأمول بالأخذ بأســـبابه وتتحقق خيريتها الموعودة بولوج أبوابه. وكم يكون مفيدًا ومثيرًا أن يخلص بحث علمي إلى أسئلة كبرى ودقيقة تفتح أبواب بحث أخرى للموضوع وتثريه وتثير بإزائه إشـكالات أعمق، تدعو المهتمين والدارسـين إلى التثوير لأجل التنوير وإلى مزيد من التحرير قبل التقرير، قصد إدراك مكامن التفريط والتقصير.

كما لا يعد ترفًا أو نافلة بل هو مطلوب وجوبًا، أن نسترشد بتحليلات وتشخيصات المصلحين والمهتمين بهذه الدوائر والميادين واستنفاذ الطاقة في الإفادة من خبراتهم وتوجيهاتهم ونصـائحهم سـواء في أبعادها الفكرية النظرية أو العملية التنزيلية. فلعل نفحة منهم في لحظة صدق وتأمل تأتي بمفاتيح ناجعة، وتدل على حلول ناجحة وتغيث بثمرات يانعة. فلو وقفنا مثلا عند قول لابن عاشـــور كهذا الذي جاء فيه: "ومن يشـــاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدًا إلى ذلك، من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلًا لفهم الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر

(1). البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث 4981، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل.

له أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيرا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير"[1].

أليس الوقوف عنده – ونحن نبحث عن الفهم القويم المتقن لأجل الفعل الراشد السديد، أي عن الحكمة في النظر والعمل– يمكن أن يسعفنا في هذا الاتجاه، بحيث يضعنا منذ اللحظة الأولى فوق السكة الصحيحة ويجعلنا نحسن الانطلاق ابتداء، فنتساءل مثلًا عن واقع التعليم في أمتنا في ضوء منتج علمي رصين لرجل عالم معلم خبر الحياة وحاز منها بنصيب وافر من التجربة والخبرة، حتى نظفر بأسئلة مفتاحية توجهنا الوجهة الصحيحة في النظر ونحو العلاج، فنقول: لماذا التقهقر العلمي، ألسنا أسوياء في خِلقتنا في عقلنا الجمعي وقوانا؟ لماذا التقهقر، هل لنا إشكالات في الفهم، أو في القابلية للانقياد إلى الحق؟ لماذا التقهقر، هل هناك موانع من الأهواء والعصبيات تتربص بنا وتكبلنا؟ لماذا التقهقر، هل نعاني من غياب خبراء ومؤهلين، أم هل هناك بيئة موبوءة مناوئة للرقي والتقدم؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يمكن تفتيقها في ظل ذلك القول، والتي يمكن أن تكون أرضية وأساسا لتمحيص الأسباب وتنجيع الوسائل وترشيد الحلول. ولعل كتاب "أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية"، للطاهر ابن عاشور يعد لبنةً مهمة بإزاء هذه القضية، وتناولًا رصينًا يمكن اعتباره نموذجًا للاقتفاء في هذا المسلك التساؤلي النقدي التحليلي.

الخلاصـــــــة:

بعد حمد الله التي تتم بنعمته الصالحات، وفي عقب هذا البحث الذي يروم أساسًا النظر في منزلة تعليم الأمة بين المقاصد القرآن عند ابن عاشور، من خلال التوقف عند بعض المعالم والانعطاف إلى بعض الأبعاد، يمكن الخلوص بإزاء ذلك إلى الآتي:

أولًا. يعتبر تعليم الأمة بحسب ابن عاشور وتبعًا لاستقرائه مقصدًا قرآنيًّا كليًّا، ومن ثم فتعليم الأمة يتبوأ منزلة عالية باعتبار تلك النسبة إلى القرآن ولكونه مطية وأساسًا لغيره من المقاصد

(1). التحرير والتنوير (3/ 61).

القرآنية. ولا غرو في ذلك لارتباطه برفعة العلم في القرآن ومذمة الجهل والتجهيل فيه.

ثانيًا. يأتي على رأس العلوم في القرآن علوم الدين لما ترتبط به فيه من إيمان بالله وبالآخرة وما يقتضيه ذاك من هداية واستقامة ومعرفة بالخالق وعبادته وتقواه واستعداد للقائه طلبا لفضله ورضـــاه، دون أن يعني ذلك توقف القرآن عند ذلك الحد، بل تتبوأ علوم الدنيا النافعة فيه مكانة لائقة خاصة عندما تتأسس على علوم الدين لتصطبغ بها وتفتل في حبلها وتتناغى مع غاياتها في تحقيق مهمة الاســـتخلاف وما يترتب عنها من عمران في الدنيا وفلاح في الآخرة انسجاما للأمة مع خيريتها وشهودها.

ثالثًا. إذا كان للعلوم الدنيوية تلك المنزلة السامقة وذلك المقام الباسق، فكيف للأمة المسلمة أن تشـتبك عقولها المفكرة بهذا النموذج المعرفي الراقي فكرًا ونظرًا؛ حتى يحصـل التثمير تنزيلًا وتفعيلًا عمليًّا في واقعها، فتترقى وتتطور علمًا وعملًا بمنأى عن أي انفصـــام نكد مُزمن، وتضـاهي غيرها وتخرج من حالة الاسـتهلاك السـلبي والعالة على سـواها إلى حالة الإنتاج والتفوق وإصـباغ تلك العلوم بصـبغة تناسـب الفطرة التي فطر الله الناس عليها ؛ فتسـتنزل شهودها المأمول بالأخذ بأسبابه وتتحقق خيريتها الموعودة بولوج أبوابه.

رابعًا. مقام العلم والتعلم ذاك في القرآن، يلزم عنه سؤال كبير يطوق أعناق المسؤولين في الأمة قياما بالمسـؤولية ومن باب الحث والاسـتنهاض لفهم أسـباب التقهقر العلمي والتعليمي في الأمة ورفع التناقض الحاصل فيها بين منزلة التعليم في مرجعيتها القرآنية وبين ترديه في واقعها.

ومن ثم فالبحث يرى أن هذا السؤال – باعتبار محوريته الجوهرية – هو من أهم مخرجات هذه الدراسة، ويوصي – إضافة إلى ما أوصى به في الخلاصة الثانية – بالتصدي للإجابة عنه ضمن ما يجاب عنه من قبل الدارسين والمهتمين، ويرى أنه ينسجم تماما ويتماهى مع صرخة هذا المؤتمر العلمي القرآني المتنادى به تحت شعار "القرآن الكريم ومشكلات الأمة المعاصرة"، الذي يمكن اعتباره استجابة ولبنة في طريق قيام كل من يهمهم الأمر للإسهام في بناء صرح العلم والتعليم في الأمة لأنهما أســـاس عزتها ومجدها وتحقيق رقيها وأهليتها التي تجعلها تؤدي أمانة رســـالتها الاســـتخلافية العمرانية المنوطة بها على الوجه الأكمل والأحكم. والله ولي

التوفيق والرشاد.

المصادر والمراجع:

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (1423هـ:2002م) *صحيح البخاري*، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق – بيروت.

أبو إسحاق الشاطبي، إبراهيم بن موسى، (1395هـ:1985م)، *الموافقات في أصول الشريعة*، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

ابن عاشور، محمد الطاهر، *التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»*، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.